لم أزر هولندا منذ أوائل 1939 حين ذهبت لأحضر منها جدتي إلى أمريكا، وكان المفروض وقتئذ أن جدتي ستمضي معنا في أمريكا ستة أشهر فحسب، بيد أن زيارتها قد امتدت ثماني سنوات، حتى بدا أنها لن تعود إلى وطنها هولندا مزة أخرى. إلا أنها ظلت تأمل في العودة يوما ما، عندما أوفدنني الشركة التي أعمل بها في مهمة إلى بروكسل، ناشدتني أن أنتهز الفرصة وأعرج على هولندا فأزور خالي وزوجته، وأعود إليها بتقرير وافي عن كل شيء، وبخاصة عن غطاء فراش من الصوف كانت تعتز به كثيرا !، وجلست أتحدث إليهما في غرفة الاستقبال الهولندية الطراز، خيل إلي أن كل شيء يجري على مألوف عادته، وإن كان خالي وزوجته قد ظلا على قيد الحياة، واجتازا محنة الحرب القاسية بسلام، فقد كان يبدو على قسمات وجهيهما ما ينبىء بأن الأمور لم تعد كما كانت من قبل، خلال الأيام التي أمضيتها معهما. ولكنهما لم يسمعاني شيئا من قصص الحرب والحوادث ، وأرجح أحيانا أخرى أنهما قد سبق وتحدثا عن الحرب بما فيه الكفاية حتى سئما هذه الذكريات الأليمة، وأن التفسير الحقيقي لصمتهما هذا، ليس شينا مما تخيلته أو رجحته، وجدت الشجاعة لأسالهما عن غطاء الفراش المصنوع من الصوف، وذكرت لهما مبلغ اهتمام جدتي به؛ وقد فك سؤالي هذا عقدة لسانيهما وراحا يحدثاني عن قصة غطاء الفراش، ولعلهما اعتقدا أن بوسعي أن أفهمهما بسهولة وأقدرهما. إني أذكر هذا الغطاء تماما. لقد كانت أمي تحرص أن تضعه محبكا تماما عند الأقدام فوق سريرها الضخم. وقد حيك على نمط بديع من الرسوم الهندسية المستديرة والبيضاوية. وأضافت زوجة خالي في صوت رقيق بدت فيه رنة اعتذار وأسف: ـ أخشى أن أكون السبب في فكه وحل حياكته. فرد خالي بسرعة كمن ينفي عن نفسه التهمة: ـ أجل. فاستطردت زوجته: ـ كانت الجوارب لا تقدر بثمن، ولم يعد عند أي فرد جوارب. ولهذا عمدت إلى حل حياكة ركن واحد من الغطاء. فقال خالي مغتاظا: ـ أجل، لقد اشتهيت هذا الجورب لتفسي صراحة. ولكن أشار بيده في حركة تسليم وإذعان واضعا يده على معدته: ـ لقد كنت جائعا أنا الآخر. فأخذت الجورب ذات ليلة إلى مزارع أعرفه، وعدت حاملا رطلين من الزبدة الطازجة. لقد كان ذلك اليوم عيدا مشهودا عندنا. أما الرطل الآخر فقد كفانا شهرا كاملا. على كل حالي لقد لبى غطاء الفراش حاجتنا من الزبدة لمدة عامين كاملين. وكم كان ينتابنا الفزع والرعب كلما رأيناه يتقلص ويتضاءل ويقرب من النهاية، إلى أسوأ ولا يبدو لها نهاية. وهنا حدث ما اعتبرناه مأساة أو فجيعة أو سمها كارثة إذا شنت. ذلك أن الخيوط الأخيرة التي فككناها لم تكف إلا لعمل فردة واحدة من الجورب الأخيروهكذا ذهبت إلى صديقنا المزارع وأنا أقدم رجلا و أوخر رجلا. ولا أستطيع أن أصف لك كيف كنت مرتبكا ومضطربا. وتشجعت أخيرا فأخبرته بصراحة متلعثما أنني لا أملك سوى فردة واحدة. وهنا حدث أمر يصل إلى حد المعجزات. لقد هجم علي المزارع يعانقني وهو يزجي عبارات الشكر والعرفان بالجميل، وأحضر رطلين كاملين من الزبدة نظير هذه الفردة الوحيدة فأجابني بقوله: ـ لقد كانت زوجتي تحل حياكة الجوارب التي ابتاعها منك، وتحيك من صوفها غطاء للفراش. وساد صمت طويل ثم قال خالي: هكذا يمكنك أن تخبر جدتك أن غطاءها سليم، ولكن الحرب غيرت رسومه وهندسته.

lakhasly.com © تم تلخيص النص بواسطة موقع لخصلي